

أثر الميكافيلية في الفلسفة البراجماتية المعاصرة

د. هبة عادل

استاذ الفلسفة المساعد-كلية الاداب-جامعة بغداد

Hiba.phil@yahoo.com

الخلاصة :-

حاولنا من خلال بحثنا بيان أثر الميكافيلية في المدرسة الفلسفية البراجماتية ، وبعد أن بحثنا في تحليل ميكافلي للطبيعة الإنسانية ، وفي بحثه في الفضيلة ، وفي التاريخ ، إلى جانب مواضيع أخرى . تمكنا من التوصل إلى أن أثر الميكافيلية في هذه المدرسة الفلسفية واضح ، ويمكن أن نقول أنه قوي كذلك . بل أن السياسة الأميركية ، اعتمدت وبدرجة كبيرة على آراء الميكافيلية ، وآرائها السياسة خاصة .

المقدمة :-

قليل الكثير عن أثر الميكافيلية(*) في الفكر السياسي والسياسيين من بعده ، ولمسنا أثرها على كثير من الشخصيات الفلسفية المهمة في تاريخ الفكر الفلسفي كهوبز(**) ، على سبيل المثال ، واليوم نحن نحاول بيان أثرها على مدرسة فلسفية معاصرة مهمة في تاريخ الفكر الفلسفي ، هي المدرسة البراجماتية - العملية - الأميركية(***) .

وقد اعتمدنا أمرين في ذلك ، الأول عدم الاتكال على آراء الآخرين في الميكافيلية ، والثاني عدم الاتكال على آراء ميكافلي المباشرة والصريحة .

سنحاول قراءة آراء ميكافلي وتحليله للطبيعة البشرية ، ومنها نصل إلى طبيعته الشخصية الماورائية المتخفية ، التي نعتقد أنها هي شخصيته الحقيقية التي حجبها الشخصية الميكافيلية المعلنة . وكما حجت شخصيات وراء تصريحات ومواقف معينة وقتيه أو متسرعة أو ... فمن المعروف أنه مع حضور اسم ميكافلي ، يحضر كم من الصفات اللاأخلاقية كالدناءة والخسة ، فيقال عن شخص "أنه ميكافلي حين يظن أنه يتصرف على وفق مصلحته دون اكتراث بالحق والأخلاق"^(١). والسؤال ، هل ما هو ذائع عن هذه الشخصية هي الحقيقة التامة ؟ لقد قيل أن الكثير من الأشخاص في وقته ، إضافة إلى الكنيسة ، حاولوا تحريف أفكاره . وأنه مع بزوغ القرن التاسع عشر ومع تبدل العوامل الفكرية والاجتماعية ، أقر بإساءة فهم ميكافلي وتبدلت النظرة إليه ، بل صار يطلق عليه ميكافلي المقدس أو الإلهي^(٢) !!

أما أجبنا الشخصية عن السؤال الذي طرحناه فسنرجئها ، إلى ما بعد استعراض آرائه

وتحليلها .

- طبيعة الإنسان :-

هنالك من الفلاسفة من صرح بان طبيعة الإنسان شريرة ، أن من الطريق الرمزي كما فعل أفلاطون قديما عن طريق أسطورة خاتم جيغيس المعروفة له . أو من خلال التصريح المعلن المباشر ، كما نجده عند توماس هوبز في العصر الحديث .
وهنالك من أشاد بطبيعة الإنسان الخيرة وبفطرته السليمة كالفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو . وهذه أمثلة عن آراء الفلاسفة المختلفة في ذلك الموضوع .

أما أن سأل سائل عن رأي ميكيافلي فيه ، فسنأتيه الإجابة سريعة ، بأنه ممن قالوا بان طبيعة الإنسان هي طبيعة شريرة . والحقيقة أننا لم نجد ميكيافلي يصرح بهذا الموضوع بذلك الحسم القاطع لماذا ؟ لأنه كان متقلبا في رأيه . ولأنه كان كذلك ، عكس ذلك الأمر على تحليله للطبيعة البشرية فهو قد شخصها ، متناقضة ، متقلبة بالقول "ليس من شيء أكثر تفاهة وتقلبا من الجماهير فكثيرا ما نرى الناس تقضي على رجل بالأعدام ثم لا تلبث أن تأخذ في البكاء عليه"^(٣) ويمكن ، على سبيل المثال ، أن نجد صدى انعكاس قلبه في رأيه المتقلب في الوفاء الإنساني . ففي مؤلفه الأمير نجد أن الناس ، بحسبه ، "تاكرون للجميل متقلبون ، مراؤون ، ميالون إلى تجنب الأخطاء ، وشديدو الطمع وهم إلى جانبك طالما أنك تفيدهم ، فيبذلون لك دماءهم وحياتهم وأطفالهم وكل ما يملكون"^(٤) . وبعد صفحات من المؤلف ذاته تجده يقول "ليس من شيمة الناس عادةً ، أن ينتكروا للشرف وان يضطهدوا من ساعدتهم ، متكرين لجميله"^(٥) . وبالعودة إلى رأيه في طبيعة الإنسان بعامه وهل خير أم شرير ، سنجد أن من أقواله ما يشير إلى طبيعته الشريرة ، فنجده يصرح أن من شيمة الجنس البشري عامة الميل إلى التقليل من أعمال بعضهم البعض أكثر من الميل إلى إطرائها^(٦) . ويرأيه ما ظهرت فكرة العدالة إلى حيز الوجود إلا عندما اجتمع الناس مع بعضهم رغبة منهم في منع الشرور^(٧) . لكننا نجد ، ومن جهة أخرى ، أنه ما قال آراءه الصريحة تلك إلا لأسباب وفي مواقف معينة فتجده يقول "لا ريب في أن الإنسان الذي يريد امتهان الطيبة والخير في كل شي ، يصاب بالحزن والأسى ، عندما يرى نفسه محاطا بهذا العدد الكبير من الناس الذين لا خير فيهم"^(٨) . ويقول بأن "هنالك حالات عدة ، لا يجدي التواضع فيها فتيلاً ، ويكون فيها بالاضافة الى ذلك عائقا ولاسيما عندما يستخدم في التعامل مع أناس متغترسين قد يدفعهم الحسد أو أي سبب آخر ، الى حمل الكراهية لك"^(٩) . وبديهي أن رأي من يعلل ويبرر هو غير رأي من يصرح مباشرة . فرأي الأخير يكون قاطعا . أما الرأي الأول - باعقادنا - فهو متذبذب غير رأس على قرار ، والحكم لديه نسبي رهين الموقف .

وهذا هو حال الفيلسوف البراجماتي ، فهو " ليس فيلسوفاً دوجماتيقياً يعتقد اعتقاد جازماً في صحة بعض الافكار ، انما هو فيلسوف حر ، متفتح الذهن أمام كل إمكانيات الطبيعة"^(١٠). والبراجماتي يرى " أننا نخدع أنفسنا إذا تصورنا ان النظريات يمكن أن تمنحنا تفسيراً أو تفهماً لما يحدث فعلاً في العالم"^(١١).

- الفضيلة :

الفضيلة هي من المعاني الأخلاقية المهمة التي غالباً ما يتحدث فيها رجال وفلاسفة الأخلاق ، ميكيافلي تحدث في الفضيلة ما ينفي عنه الرأي القائل بابتعاد طروحاته وطروحاته السياسية بالذات والتي اختص وعرف بها ، عن الأخلاقية . ومع أنه قيل أن ميكيافلي كان قد فصل بين السياسة والأخلاق بقوله أن على الأمراء "أن لا يتبعوا نفس القواعد الأخلاقية، التي تتحكم في سلوك الأفراد"^(١٢) . إلا أننا نرى أن رأيه لم يكن ثابتاً في ذلك الموضوع كذلك . ففي نص له أشار إلى مثل تلك العلاقة التي يمكن أن تحدث بين السياسة والأخلاق ، وبالتحديد بالفضيلة الأخلاقية . يقول "لا يمكننا أن نطلق صفة الفضيلة على من يقتل مواطنيه ، ويخون أصدقاءه ويتنكر لعهوده ، ويتخلى عن الرحمة والدين ، وقد يستطيع المرء بواسطة مثل هذه الوسائل ، أن يصل إلى السلطان ، ولكنه لن يصل عن طريقها إلى المجد"^(١٣) . كما ونجد أنه ، ومن باب عدم تمسكه بالثبات في الآراء ولا الحدية والصرامة ، نجده يرهن تعريفه للفضيلة بل وللرذيلة كذلك ، على المنفعة والنتائج التي يجنيها أو يلمسها الإنسان .

يقول "أن بعض الأشياء التي تبدو فضائل تؤدي إذا اتبعت إلى دمار الإنسان بينما هناك أشياء أخرى تبدو كرزائل ولكنها تؤدي إلى زيادة ما يشعر به الإنسان من طمأنينة وسعادة"^(١٤) . وهكذا نصل إلى أن لا الفضيلة هي فضيلة بالمعنى المطلق ولا الرذيلة رذيلة بذلك المعنى ، فالفضيلة يمكن أن تسمى رذيلة وبالعكس بحسب النتائج والمنافع التي قد تجلبها . وقد أخذ الكثير على الميكيافيلية تصريحاتها تلك ، لأسباب ، أنها بتلك التصريحات ، تقلب الحق باطلاً والباطل حقاً . والحقيقة أن تعليل ذلك الأمر يمكن أن نجده مع المدرسة البراجماتية التي نجدها هنا أخذت الكثير عن أفكار الميكيافيلية تلك . فالمدرسة البراجماتية تترك الأمور للتقييم الشخصي الذاتي ، فهي في جوهرها فلسفة إنسانية ، ترى أن الإنسان هو الخالق لمثله في ميادين نشاطه^(١٥) .

- التاريخ :

الفيلسوف الذي يؤمن بالتغير والنسبية غالباً ما لا ينقب أو يبحث أو يحلل في التاريخ ، إلا أن كان ذلك التاريخ يخدم آراء معينة لذلك الفيلسوف .

بداية يؤكد لنا ميكيافلي تقدير واهتمام الناس للتاريخ بدليل شراء الأشياء الأثرية بأغلى الأثمان ، يشرفون بها بيوتهم^(١٦) . لكن باعتقادنا لأنه فيلسوف آمن بالنسبية ، على ما رأينا ، أخذ يحلل التاريخ ويشرح أسباب تمسك الناس به وحبهم له . يقول أن الناس يولدون ويعيشون ويموتون في نسق واحد لا يتبدل ولا يتغير^(١٧) . وقد حلل وعلل ذلك بالقول بأنه من المستحيل علينا أن نعمل عكس ما توحى به طبائنا ، كما أننا إذا تبينا طريقة من طرائق السلوك وقطعنا فيها شوطاً طيباً فان من الصعب علينا إقناع أنفسنا بأن في وسعنا النجاح إذا ما تبعنا طريقة مغايرة لها^(١٨) . وإذا كانت طبائنا هذه هي السبب في تمسكنا بطرقنا ونسقنا الواحد ، فان تلك الطبائع ذاتها هي التي تجعلنا نتمسك بالتاريخ مرة أخرى لكن ليس للسبب ذاته ، وان كانت النتيجة هي ذاتها بل نجد ميكيافلي ، وبعده إلى التقلب في آرائه ، يقول بسبب مغاير تماماً للأول، يقول أن الطبيعة خلقتنا على نحو لا نستطيع فيه مواصلة ألتوق لشيء واحد أمداً طويلاً ، ذلك أن الأذواق البشرية من النوع الذي لا يشبع قط . لكن طالنا يشاء، أن لا نحصل من هذه الأشياء إلا على أقلها ما تكون نتيجة أن العقل البشري يظل ، وبصورة مستمرة ، مفتقراً إلى القناعة ويكون ملولاً في الغالب مما يملكه وهذا يدفعه إلى أيجاد الأخطاء في حاضرة وإطراء الماضي والتلف على المستقبل^(١٩) . هذا كان تحليل وتعليل ميكيافلي لتمسك الناس بالماضي . أما هو فكان عكسهم يجد في التاريخ أهمية تجعل التمسك به ضرورة ، وهذه الأهمية هي نفعيه عملية بحتة . إذ كان مقتنعاً أن دراسة التاريخ وماضي الأمم يمكن أن يساعد على التكهّن بمستقبل أي دولة من الدول^(٢٠) وهنا نجد لكل تلك الآراء صدى في فلسفة البراجماتي ، جون ديوي ، كذلك فهو فيلسوف الخبرة الذي كان يعتقد أن ما يكسبه المرء من خبرة تتجمع شيئاً فشيئاً خلال الحياة ، ويرى أن الإنسان مطبوع على المحافظة على القديم بفطرته وبتربيته^(٢١) . أن ما أراده ديوي ، هو ما أراده ميكيافلي ، الأخذ من الماضي ما هو صالح ونافع للمستقبل .

- وآراء أخرى :-

لمسنا أثر الميكيافيلية في البراجماتية بمواضيع محددة ، وإضافة لها وجدنا بأنه كانت هنالك آراء للميكيافيلية متناثرة ، حاولنا لملمتها للمقاربة بينها وبين الأثر الذي تركته في البراجماتية. أهم هذه الآراء هو المبدأ الذي عرف عن الميكيافيلية واقصد الغاية تبرر الوسيلة. أي السبل والوسائل التي تؤدي إلى النجاح^(٢٢) . هذا المبدأ الذي هو صلب الفلسفة البراجماتية التي رهننت نجاح الأفكار - الوسائل - بمدى فائدتها العملية "للحصول على الوضوح التام في فكرتنا عن شيء ما لا نحتاج إلا إلى اعتبار ماهية الآثار العملية المتصورة التي يحتمل أن ينطوي عليها"^(٢٣) . وهذا هو ديدن السياسية الأميركية اليوم ، السياسة التي اعتمدت على فلسفتها البراجماتية فالأوضاع

الكريهة التي نجد عالمنا متردياً فيها اليوم ترجع إلى حد كبير "إلى تبني الحكومات لمبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، وان في وسعها أن تحافظ على تعهداتها أو تنقضها طبقاً لمصالحها الخاصة ، وان أول ما يجب أن تفعله عند أقامتها عهداً جديداً ، هو أن تقضي على جميع معارضيتها دون الاكتراث بالطريقة التي يتم فيها هذا القضاء"^(٢٤) . ومن منطلق المبدأ ذاته ، ينصح ميكافلي الحاكم بعدم الالتزام بالوعد ، أن كانت تؤدي إلى الأضرار بمصالحه ، يقول "على الحاكم الذكي المتبصر أن لا يحافظ على وعده عندما يرى أن هذه المحافظة تؤدي إلى الأضرار بمصالحه ، وأن الأسباب التي حملته على إعطاء هذا الوعد لم تعد قائمة . ولو كان جميع الناس طبيين فان هذا الرأي لا يكون طيباً ولكن بالنظر إلى أنهم سيئون ، وهم بدورهم لن يحافظوا على عهودهم لك ، فأنت لست ملزماً بالمحافظة على عهدك لهم"^(٢٥) .

وهذه المقولة تتطلب وقفة والنظر لها من جانبين ، الأول . أننا لو اقتنعنا المقولة لبدا قول الغاية تبرر الوسيلة واضحاً كالشمس ، لكننا هنا سنكون كمن لم يصل لأنه تمسك بالآية "لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ"^(*) أي الآية المقطعة دون تتمتها . ولو نظرنا لها من جانبها الثاني بتتمتها ، لوجدناه اشترطها بكلام لا يبتعد عن الفيلسوف الألماني الأخلاقي الصارم كانط بقوله ، عامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك ، كانط قلب صيغة المقولة واحكم صوغها صياغة أخلاقية . أي باعتقادنا الشخصي أن البراجماتية أخذت الشق الأول من مقولة ميكافلي وأساعت استعماله وتطبيقه عملياً بالنسبة للآخر وأحسننت تطبيقه عملياً بالنسبة إليها . وكانط أخذ الشرط الثاني من المقولة وأحسن صياغته نظرياً . ومن آراء ميكافلي الأخرى والتي أثرت بآراء المدرسة البراجماتية ، قوله "الناس لا يفعلون الخير إلا إذا اضطروا إلى فعله بدافع الحاجة"^(٢٦) . أي أن المنفعة والمصلحة والريح هي الدافع وراء كل عمل ، وقد اشرنا إلى ما يقارب ذلك القول عند البراجماتية الساعية وراء المنافع والأرباح في كل دوافعها . ومن آراء ميكافلي ، تمكنا من اصطياذ مقوله أكد فيها أن "مقترف الخطأ ، يستحق اللوم أكثر من الذي رغب في ارتكابه"^(٢٧) . أي أنه هنا رهن الخطأ والصواب بالفعل لا بالنية . ومعروف أن المدرسة العقلية عولت على النية في الأعمال بينما عولت المدرسة العملية على الفعل ونتيجته دون النية . فهذا جون ديوي – أحد رواد المدرسة البراجماتية – وأن وجه نقده إلى المذاهب التي تهتم بالنتائج كمذهب المنفعة ، منشقاً بهذه النقطة عن آراء مدرسته إلا أنه من جهة أخرى ، نقد المذاهب التي تعتمد عن القصد والنية في الفعل كالمسيحية وأخلاق الفيلسوف كانط^(٢٨) وكان لميكافلي رأي في كيفية تحول مدينة إلى إمبراطورية عظيمة مفاده اللجوء إلى كل وسائل متوافرة لهم ليحشروا أكبر عدد من السكان وبرأيه هنالك وسيلتان للحصول على عدد السكان "أحدهما وسيلة سلمية يكون سبيلها الود ، وثانيتها القوة . وتكون الطريقة الودود ممكنة ،

عندما تظل الطريق مفتوحة أمام الغرباء ، وسليمة بالنسبة إليهم ، ولاسيما أولئك الذين ينوون الرحيل إليها والإقامة فيها ، بحيث يشعر كل واحد منهم بالسعادة إذا ما تحققت له نيته .
ويلجأ إلى وسيلة العنف عندما يلحق الدمار بالمدن المجاورة ، ويبعث بأهلها للإقامة في تلك المدنية^(٢٩) . وكلنا يجد صدى تلك الوسائل في السياسات الأميركية العملية . إذ صار الوصول إلى أرض ميعاد الدنيا - أميركا - حلم كل إنسان بما تتيحه تلك الأرض من امتيازات لمن يقرر العيش فيها . وتلك هي الطريقة الودود . والطريقة الثانية استعملتها أميركا مع كل الدول التي عاثت فيها الدمار .

الخاتمة :-

لقد قيل الكثير عن اعتناق الساسة ، وبخاصة الشخصيات السياسية الدكتاتورية للميكيافيلية ، لذلك نجد أنه من غير المستبعد ولا المستغرب أن تتلقف العقلية الفلسفية الأميركية للميكيافيلية . خاصة وأنها أولاً :- عقلية ظهرت في بلاد كانت قد اكتشفت جديداً فكانت بحاجة ماسة للتوسع ، ثانياً :- العقلية الأميركية ، هي عقلية دكتاتورية بالأصل وأن كانت تتستر بستار الديمقراطية . فما محاولات نسبة الديمقراطية لها وتتصيب نفسها الرسول الذي تقع على عاتقه مهمة نشر مبادئ الديمقراطية في شتى أنحاء العالم شاءوا أم أبوا . ما كل هذه المحاولات إلا نوعاً من الدكتاتورية أن لم تكن هي الدكتاتورية بعينها . ولا ندعي هنا أن الميكيافيلية هي الأفكار الشيطانية التي جاء بها شيطان يدعي ميكيافلي . لذا فمن البديهي أن تكون الموروث الذي يتمسك به كل دكتاتور . بل نرى ، ومن وجهة نظر خاصة ، أن انفتاح أفكارها ومطابقتها واحتمالها للخلط وللأخذ بأكثر من معنى ، إضافة للنصائح القيمة التي أدلى بها ميكيافلي وبأمانة لكل حاكم يريد أن يتمسك بزمام الأمور على أتم وجه ، أن من خلال النصائح التي قدمها لأميره - لورنز العظيم - الذي قدم له مؤلفه الأمير كهديّة متواضعة ، أو من خلال مؤلفه المطارحات الذي يعد اشمل من مؤلف الأمير . كل ذلك وفر الأرض الخصبة لكل دكتاتور بان يزرع ما يشاء من أفكار ، بحكم دكتاتوريته ، وكان مؤمناً بان زرعه سيثمر . لذا لم يتوان أياً منهم في الأخذ بها عبر التاريخ .

- الهوامش :-

* هي فلسفة الفيلسوف الايطالي ميكيافلي ، ولد ١٤٦٩ في فلورنسا من أسرة عريقة .

* فيلسوف انجليزي من العصر الحديث .

* مدرسة فلسفية أميركية معاصرة ، عدّ الفيلسوف جارس بيرس مؤسساً لها .

(١) الكعبي ، محمد سماري :- الميكيافيلية وأثرها في الفكر السياسي الغربي ، بغداد ، ٢٠١٠ ، ص ٨٣

- (٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .
- (٣) ميكافلي ، نيقولو :- مطارحات ميكافلي ، ترجمة خيرى حماد ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٤٢٥ .
- (٤) ميكافلي ، نيقولو :- الأمير ، ترجمة فاروق سعد ، ط ٨ ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٤٤ .
- (٥) المصدر نفسه ، ص ١٧٧ .
- (٦) ميكافلي ، نيقولو :- المطارحات ، ص ٢٠٧ .
- (٧) المصدر نفسه ، ص ٢١٨ .
- (٨) ميكافلي ، نيقولو : الأمير ، ص ١٣٦ .
- (٩) ميكافلي ، نيقولو : المطارحات ، ص ٤٥٨ .
- (١٠) أسلام ، عزمي : اتجاهات في الفلسفة المعاصرة ، الكويت ، ص ٨٧ .
- (١١) بوير ، كارل : أسطورة الإطار ، ترجمة يمنى طريف الخولي ، الكويت ، ٢٠٠٣ ، ص ٢٠٥ .
- (١٢) ميكافلي ، نيقولو : الأمير ، ص ٣٥ .
- (١٣) المصدر نفسه ، ص ٩٨ .
- (١٤) المصدر نفسه ، ص ١٣٧ .
- (١٥) العزاوي ، هبة عادل : أضواء على فلسفات حديثه ومعاصرة ، بغداد ، ٢٠١٣ ، ص .
- (١٦) ميكافلي ، نيقولو : المطارحات ، ص ٢٠٧ .
- (١٧) المصدر نفسه ، ص ٢٦٢ .
- (١٨) المصدر نفسه ، ص ٦٣٨ .
- (١٩) المصدر نفسه ، ص ٤٢٥ .
- (٢٠) المصدر نفسه ، ص ٢٠٨ .
- (٢١) ديوي ، جون : البحث عن اليقين ، ترجمة وتقديم ، احمد فؤاد الاهواني ، مصر ١٩٦٠ ، ص ٣٠٠-٣٠١ .
- (٢٢) ميكافلي ، نيقولو : المطارحات ، ص ١٠٧ .
- (٢٣) كورنفورث ، موريس : البراغماتية والفلسفة العلمية ، ترجمة إبراهيم كبة ، بغداد ، ١٩٦٠ ، ص ٧٩ .
- (٢٤) ميكافلي ، نيقولو : المطارحات ، ص ١٣ .
- (٢٥) ميكافلي ، نيقولو : الأمير ، ص ١٤٨ .
- (*) سورة النساء الآية ٤٣ .
- (٢٦) ميكافلي ، نيقولو : المطارحات ، ص ٢٢٤ .
- (٢٧) المصدر نفسه ، ص ٢٥٦ .
- (٢٨) ديوي ، جون :- الديمقراطية والتربية ، ترجمة متي غفراوي وزكريا ميخائيل ، مصر ، ١٩٤٦ ، ص ٣٥٦ .
- (٢٩) ميكافلي ، نيقولو : المطارحات ، ص ٤٤٢ .

Impact Machiavellian in contemporary philosophy of pragmatism

D. Heba Adel

**Assistant Professor of Philosophy - Faculty of Arts - University of
Baghdad**

Conclusion: -

We have tried through our statement impact Machiavellian in the philosophical school of pragmatism, and after that our to analyze Mikiavlje of human nature, and in his virtue, and history, as well as other topics. We were able to reach the impact الميكافيلية in this school philosophical and clear, and we can say it is strong. But that American policy, and to a large extent adopted the views الميكافيلية, and their views on particular policy.